الفصل الخامس والثلاثون

ذكر ما فى فسطاط مصر من البيمارستانات والمستشفيات

كان فى مصر قديمًا ١٤٠ بيمارستانًا ومستشفى، وآثارها ظاهرة للعيان إلى يومنا هذا ولأن أوقافها ضمت إلى المال الأميرى لحق بها الخراب. وفى وقت سياحتى كان بها أربعة بيمارستانات، أحدها بالقرب من بين القصرين وهو:

بيمارستان مقام موسى

إنه بيمارستان بلا وقف والخدمة فيه ابتغاء مرضاة الله، ولذا يرسل إليه أهل الخير الطعام لكل من فيه فى كل وقت. كما أن بعض الدراويش يخدمون فيه لوجه الله وكل أحد يتصدق عليه من مال الزكاة.

بيمارستان الجامع الأزهر

الخدمة فيه كذلك مجانية ابتغاء لوجه الله، إلا أن له أوقافًا عظيمة علاوة على ما يأتيه من النُّذور والصدقات والأطعمة حتى صار خدّامه من المترفين إلا أن هذه الأوقاف غير تابعة للجامع الأزهر. ويقع هذا البيمارستان داخل زاوية الشيخ محمد المطوبسى.

بيمارستان السلطان المؤيد

يقع بعد باب الوزير عند التكية الأوزبكية. إنه بناء عال فى موضع طيب النسيم وهو بناء سلطانى من الحجر وفيه حجرات وقاعات متعددة، وله باب شاهق داخل التكية الأوزبكية، ولكى يتنسم المرضى فيه طيب النسيم له مقصورات مختلفة، إنه بناء جميل ولكنه بلا أوقاف ولذلك فخدامه من دراويش التكية الأوزبكية.

أوصاف مستشفى السلطان قلاوون العامر

إنه مستشفى عظيم يقع فى ركن حرم جامع قلاوون الذى سبق الحديث عنه وعن ميرته، ولا وجود لمبنى يشبهه فى بلاد العرب والترك والعجم. وطراز تصميمه يخلب الألباب، والأطباء يعالجون فيه المختلون عقليًا فيعقلون.

وفى بدايته كان مرصوفًا بالرخام طولا وعرضًا، وله حرم عظيم، مساحته مائة وخمسون قدمًا، ويتوسط هذا الحرم حوض عظيم، ونافورته تدفع الماء إلى أعلى بقدر قامة

رجلين، وعلى حافة هذا الحوض مصلى، وفوق هذا الحوض قبة سقفها منقوش يحملها اثنا عشر عمودًا، وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحرم قاعة عظيمة تتسع لألف إنسان، وعلى جانبى هذه القاعة صُفَّات، ويعلو العقود الحجرية سقف منقوش، وهذه القاعات مرصوفة من أولها إلى آخرها بمختلف أنواع الرخام وكأنها رسول «ارزنك» وتمتد أحواض الماء الجارى حتى نهاية هذه القاعات، ويجرى الماء بين هذه الصُفَّات وتصب فى الحوض الذى يتوسط الحرم، ولقد أنشأت أربع قاعات أخرى على نفس الطراز.

وعلى هذه الصُفَّات يرقد المرضى فى ثياب النوم وتحت اللحف الحريرية، ويستريح بعض الناقهين من هؤلاء المرضى على حافة تلك الأحواض الجارية، ويخدمهم الخدام وكأنهم فراشات. إلا أن بعض الأخوة المجانين يستقرون فى الأركان المظلمة، وبعضهم فى حجرات واسعة ذات أحواض وشادروانات وهم مقيدو الأعناق بالسلاسل كالأسود وبعضهم يصيحون وكأن صوتهم هزيم الرعد، وبعضهم يلزمون الصمت والهدوء.

وبما أن جو مصر جاف فجميع أهلها سودويون، ولكثرة مكر النساء فيها فالكثرة الكاثرة من أهلها مسحورون ممكورون. وإذا أخبر أهل حى من الأحياء الباشا عن حالة أحد ممن اختلت قوتهم العقلية أمر الباشا بإدخاله البيمارستان للعلاج، وإذا لم يأمر الباشا بذلك لا يدخلونه البيمارستان إلا بناء على هذا الأمر.

ولأن له نفقة تصرف له فى كل يوم على الدوام لذلك يوجد فى بيمارستان قلاوون ٣٦٠ مريض ومجنون فى يومنا هذا. وفى الموضع الذى يصرف منه طعام المبرة يصرف للأطباء مع تلاميذهم الأطعمة ومعاجين الأدوية على حسب حالة كل المرضى.

وللأطباء خُدّام من ذوى الجرأة ولهم طبع الجلادين. وهؤلاء الخدام يطعمون بعض الأخوة المجانين الخوشاف المسمى «قزلجق».

وإذا ما قدم هذه العتبة مريض كان قد لزم الفراش ثلاثة أعوام أو مجنون شُفِىَ من مرضه بعد أربعين يومًا بإذن الله وتوردت وجنتاه ففى هذا المستشفى من الأطباء أمثال بقراط وسقراط وأفلاطون وفيثاغورث التوحيدى وأبى على ابن سينا، وهم يحيون الموتى كأنهم المسيح. ولكن هؤلاء الأباء ليسوا من أهل المدينة فهم جميعًا من الغرباء، إنهم

كذلك من العرب لأن العرب لقنوا علم الطب، وكان هذا العلم عندهم من ألزم اللوازم، فعنه ﷺ قال: (العلم علمان الأول علم الأبدان والثانى علم الأديان). وبناء على هذا الحديث شاع علم الطب فى العرب ولقد وجد علم الطب فى عهد آدم الثانى وهو نوح النجىّ عليه السلام، والإسكندر الأكبر، وفى عهد الفلاسفة فيلقوس وجالينوس، وبعد عهد الرسالة لما كان من كرامات باهرة لكبار أولياء الله اشتهر الحكماء بالطب. وقد وقف اليونان والفرنجة على دقائق علم الطب واشتهروا بها ولكن مست حاجتهم إلى العرب لأن هؤلاء العرب بتقواهم وزهدهم وقوة علمهم إذا نزل بأحدهم مرض وعالجوه شفى بإذن الله.

وفى مستشفى قلاوون إذا ما جس مهرة الأطباء نبض أحد المرضى عالجوه بما يتفق مع حالته وكان له الشفاء بإذن الله، لأن فى بلاد مصر فى الإقليم الأول بالصعيد والواحات والحبشة وبلاد الفونج وجبل القمر نباتات وأعشاب مختلفة، وقد لا توجد هذه النباتات حتى فى بلاد الهند، وتجلب هذه الأدوية إلى القاهرة ويصفها الأطباء للمرضى فيتم شفاؤهم، ولذا كان لمستشفى قلاوون مستفيض الشهرة فى بلاد العرب والترك والعجم.

وفى أحد جوانب هذا المستشفى بيمارستان النساء، وقد أنفق على إنشائه مال وفير، وكل القائمين على الخدمة فيه من النسوة والأطباء يدخلونه بلا خوف ولا حرجة، ويصفون لكل داء دواء. وقد يتفق لبعض نزيلات هذا البيمارستان من النساء الذاهبات العقول أن يلدن فيه، ففى عهد إبراهيم باشا اتفق أن ولد لامرأة ولد فى هذا المستشفى فسموه شفائى.

وخلاصة القول أننى لم أشهد مبنى بهذه العظمة أثناء تطوافى فى البلاد.

أوصاف صنع مستحضرات الترياق الفاروقى العظيم

ليعلم الرحالة من أهل العلم بقدر ما على وجه الأرض من أطباء يصنع الترياق الفاروقى ولكن لا يحتمل أن يكون كالترياق الفاروقى الذى يحضر فى مصر لأن أقراص الترياق الفاروقى خاصة بمصر ولا وجود لها إلا فيها. وكلمة قرص تدل على عدة أشياء

وهى: أن هذا القرص يستخلص من جسم الثعبان. وهناك أربعون شخصًا تجرى عليهم رواتب من أوقاف قلاوون، وهم يعملون مرة فى العام وهم يسكنون فى قرى ابن خبير فى الجيزة وهم طائفة يصيدون ثعبان الترياق الفاروقى مرة فى شهر يوليو من كل عام.

وهم عندما يحلون فى موضع صيده يجتمعون فى موضع واحد ويكسون جسمهم من أعلاه إلى أسفله باللباد الغليظ بحيث يسترونه ولا يبدو منهم إلا عينهم التى ترى وهم يسترون كذلك وجوههم، وعلى عمائمهم الطويلة قطع من اللباد الأبيض ويمضون صوب نواحى بهنسيا والفيوم والجبل الأخضر، ويصلون إلى الموضع الذى فيه ثعابين الفاروقى فى برد الصباح لأن الثعابين تخمل دون شدة الحر، ومع ذلك فإن الثعابين الفاروقى تهاجمهم بضراوة ويصطادون منها آلافًا فيضعونها فى الزنابيل فتثور فيخيطون أفواه الزنابيل ويتفق فى بعض الأحايين أثناء صيدهم للثعابين أن تثب إلى وجوههم، فإذا ما أصابت عيونهم فلا نجاة للصياد من الموت لأن سم هذه الثعابين سم زعاف، والقطرة من سمها تقتل فى التو، إنها ثعابين فتاكة، وهؤلاء الرجال المذكورين يختصون بصيدها. ولا طاقة لغيرهم من الناس بعملهم هذا، ولهم موكب خاص بفرقتهم وهم من أهل التقوى والصلاح وهم على الطريقة السعدية.

واتفق أن اصطادت هذه الطائفة كثير من الثعابين وضعوها فى زنابيل وحملوها على الحُمُر وفى طريقهم إلى القاهرة عندما وصلوا إلى حديقة جميلة وكأنها حديقة إرم انطلق ثعبان من الزنابيل ولدغ الحمار الذى يحمل الزنابيل فسقطت عن الحمار وفى طرفة العين تورم جسم الحمار إلى أن أصبح كجسم الفيل وتيبست قوائمه وكأنها أعمدة من حجر وأبعد الصيادون الناس عنه محذرين إياهم من الرائحة المنبعثة من جثة الحمار التى تؤذيهم، وأخذوا الزنابيل الممتلئة بالثعابين التى كانت محملة على الحمار ووضعوها على حمار آخر، وقد تفتقت جثة الحمار المسموم وذابت كل عظامه، وحمدًا لله أن أحدًا لم يصب بأذى، وأهل من كانوا فى هذا الموضع التراب على جثة الحمار وستروها ودفنوها، أما الحُمُر الأخرى فمضوا بها إلى مستشفى قلاوون وسلموها لرئيس الأطباء ورئيس المستشفى.

وكنت قد استأذنت كبير الأطباء لمشاهدة المستشفى فأخبرونى بأنه أذن لى، وفى التو ركبت جوادى وعندما بلغت مستشفى قلاوون فتحوا باب الفاروق وأدخلونى ثم أوصدوا الباب، وحتى لا تنكشف أسرار علمهم ولأن المكان مفعم بآلاف الثعابين الفتاكة لا يدخلون شخصًا غريبًا.

وبيت الفاروق هذا مدرسة عظيمة، وكل جدرانها وأرضيتها مكسوة بالرخام، وهى مدرسة قاصرة على علم الطب فقط، ولهذه المدرسة حرم تحيط به صُفَّات وفى ذلك اليوم انهارت هذه الصُفَّات وكنا ثلاثين شخصًا من كبير الأطباء والناظر أغا وكاتب الأوقاف ومرشد الأوقاف وعشرة من نواب كبير الأطباء وداع واثنى عشر صيادًا وطهاة وقصابين، وكان عدد من دقوا الباب وأرادوا الدخول من خارج الباب لا يدخل تحت حصر، وكان الباب محكم السد فقالوا لى لا تخف وأشعلوا قنديلاً، واعتليت مرتفعًا وتهيأت لمشاهدة المستشفى.

وقام هؤلاء الثلاثين وتوضأوا وصلوا ركعتين قضاء وأحضروا مائة عصى طول كل منها ثلاثة أشبار ومائة من سواطير القصابين وهى سواطير حادة مصنوعة من الصلب الإفرنجى ومائة ماجور من الفخار المبطن بالزجاج وكل منها يتسع لإنسان وهى مملوة بالماء الصافى وبعضها فارغ، وعدة صينيات من القصدير التى تعود إلى عهد قلاوون، وأردب من الملح المسحوق المنخول، وخمسون وعاء كبيرًا مثل أوعية الماء مبطنة بالزجاج من الداخل والخارج، وهذه الأوعية واسعة القاع وفوهتها تتسع لرأس إنسان، وجهزوا كل الأوعية النحاسية والفخارية. ولما هَمّ الداعى بالقيام نهض الحضور جميعًا، وبعد البسملة وحمد الله والطرزية والتصلية قرأ الداعى الفاتحة على أرواح آل عثمان والسلطان قلاوون صاحب هذه الخيرات والحسنات، ولقمان الحكيم وفيثاغورث التوحيدى وسلطان الأطباء ابن سينا وسائر الحكماء والأطباء، ودعا الله بالخير للطبيب الرئيس والناظر أغا وكاتب رئيس الطهاة ومساعديه وسائر الخدم، ثم كبّر وقرأ الفاتحة الشريفة وبعد أن مسح وجهه بيده فتح كبير الصيادين وثلاثة من قصابى الثعابين فوهة أحد الزنابيل فى وسط حرم المستشفى فانطلقت آلاف الثعابين السامة الفتاكة فطاش صوابى واعتليت موضعًا

مرتفعًا واندفعت الثعابين يمينًا ويسارًا وهاجت وفحت واصطدمت بالجدران وانتشرت حول الحاضرين فجمعها خدام كبير الأطباء والصيادون فى مكان واحد وكانت لهم زنابيل من الصوف الأصفر، وعندما وضعوا الثعابين فيها هدأت ولم تعد تحرك ساكنًا، وجلس كبير الصيادين مع ثلاثة من رجاله إلى جانب أورمة وحملوا سواطيرهم وأخرجوا الثعابين من الزنابيل الواحد تلو الآخر وضموا نوعًا من الثعابين البيض إلى غنمهم وقد انتشيت من شذا مسك هذه الثعابين، فسألت كبير الأباء عنها فردّ علىّ قائلاً: إنها ثعابين المسك وليست ثعابين الفاروق ونحن نصنع منها أدوية أخرى وسوف ترى الآن.

ورأيت أنهم جمعوا ثعابين بِيض كثيرة فى مكان واحد وصففوا أفواه الثعابين بخيوط حريرية حمراء طويلة فى ركن ظليل وامتد هذا الخيط من جدار إلى جدار وقد علقوا فيه ثعابين المسك هذه ثم استخدموا قطعة من القطن فى وضع قطرات من زيت زيتون صوصه فى أفواه الثعابين فنفقت جميعًا، وبدأ كل منها فى الانتفاخ وبقيت هذه الثعابين معلقة على هذا الوضع أربعين يومًا وليلة، وبذلك تتكون داخل جلد هذه الثعابين حبات من المِسك وقوة رائحة هذا المسك تدمى أنف من يشمها، إنها رائحة حادة إلى هذا الحد البعيد.

وثمة ثعابين قصيرة منقوشة الجلد ورءوسها مستديرة كالجوزة وعندما وضعوها سألت عنها فقيل لى إنها «حيات الصفى» وهى من نسل الأفاعى التى أخرجت من الجنة مع آدم عليه السلام، وهى كذلك ليست من نوع أفاعى الفاروق وثعابين الصفى لا تخرج صغارها من البيض مثل ثعابين الفاروق، وإنما تولد كسائر الحيوانات وهى تختلف عن خلق الحية وتلك حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وجملة أفاعى الفاروق التى صادوها ٨٣٠٠ سَلّمها الصيادون للمتولى وقيد الكتبة والمرشدون فى الدفاتر أن سعر كل ثعبان ٨٠٠ قرش، وبعد ذلك جلس كبير الصيادين وقصابو الثعابين الثلاثة إلى جانب أورمة وقالوا: «بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله بِنيّة الشفاء وأخرجوا ثعبانًا كبيرًا من الزنبيل ووضعوا وسط الثعبان على الأورمة وأمسك أحد

القصابين رأس الثعبان وذيله بيده اليسرى وهوى بالساطور عليه مرة واحدة بيده اليمنى، فتلوى الثعبان على الرخام بلا رأس ولا ذيل وبقى رأس الثعبان وذيله فى يد كبير الصيادين وبظهر الساطور أخذ يسحق رأس الثعبان وتركها على الرخام وردد الحضور فى المجلس «لا إله إلا الله» وقبض كبير القصابين على الثعبان الذبيح ونحى ذيله ورأسه جانبًا بثلاثة أصابع وقطعه ثم جاء قصاب آخر وحمل الثعبان المقطع وشق بطنه بسكين من ذهب وأخرج أحشاءه وبيضه وألقى به إلى قصاب آخر فقام بنزع جلد الثعبان بأظافره وسلخه من رأسه إلى ذيله فأخرج قطعة من لحم أبيض، وظل الثعبان يتلوى وبعد ذلك أمسك به أحد الأطباء وتنتهى مهمة القصابين عند هذا الحد، ويأخذ مساعدو كبير الأباء الثعابين المسلوخة ويغسلونها جيدًا فى ماء تلك المواجير سالفة الذكر ويملحونها ويضعونها فى الأوانى المبطنة بالزجاج حتى تمتلئ ثم يضعونها على النار وعندئذ أمسك كبير الأطباء الساعة وأحرق خشب السنط تحت الأوانى والجميع يوحدون الله وهم خاشعون، وعندما أخرجوا بعض الثعابين من الزنابيل بصقوا فى أفواهها ووضعوها على الأورمة فتلوت الثعابين حتى ذبحوها.

والحاصل أن اثنى عشر صيادًا وقصابًا ذبحوا ثعابين الزنابيل العشرة جميعًا واحتفظوا بأذيالها ورءوسها ليصنعوا منها دواء آخر ولهم زجاجات كبيرة للقطرة يملؤنها بها. ولكنى ألححت فى السؤال إلا أنهم لم يجيبونى إجابة شافية ولست أدرى إن كنت على صواب فى قولى إنهم يستخرجون ما فى رءوس الثعابين من سم لتصديره إلى بلاد الفرنجة، فقد أرسلوا إلى ملك «دونقاقيز» ما يقرب من ألف رأس ثعبان سلكت فى خيط على سبيل الهدية، فَسُرّ الملك بذلك وأرسلها لأحد ولاته.

عبرة عظيمة عند تحضير الترياق الفاروقى

عندما كان القصابون يذبحون هذه الثعابين ولم تكن ضربة الساطور فى موضعها وأصابت جزءًا من الرأس أو الجذع أو الذيل سرعان ما يثب إليهم كبير الأطباء قائلا لهم: «ارموا الحية ارموا الحية!» ولم يرموها مع أحشاء وبيض الثعابين الأخرى وتركوها فى مكان آخر، وفى هذه الحالة أصبح الثعبان فى غلظ الذراع وانتفخ وكان من قبل

الرأس فى غلظ الأصبع، ولعدم ذبحه على الطـريقة الصحيحة أثر ما فى رأسه من سم فى جسمه فانتفخ. ولذلك صاح كبير الأطـباء وأمرهم أن يلقوه من يدهم وألقوا كذلك الأورمة والساطور وجاءوا بأورمة أخرى وساطور أخر.

واقتضت حكمة الله أن خمسة وستين ثعبـانا مما كان فى العشر سلال لم تذبح جيدا فـى ذلك اليوم ورميت مع آلاتها، ولكن هذه الثعابين التى ألقيت لا تحسب على الوقف ولكنها تحسـب على الصيادين والقصابـين وتحسب تحت حساب وظيفتـهم وتلك ظاهرة عجبة.

عبـرة أخـرى

كوم القصابون بيض وجـلد وأحشاء تلك الثعابين كالجبال وذروا علـيها الملح الناعم لتمليحها وعندئذ صرخ أحد القصـابين وجذب يده وجعل يتأوه ويصيح قائلا: وا ولداه وفى التو أحضر كبير الـصيادين ثلاثة ثعابين من التى غسلت فـى المواجير وربطها على أصبع الرجل وفى الحال تـورمت الثعابين الثلاثة وأصبحت فى غـلظ الذراع، ثم رفعها وجاء بثلاثة ثعابين أخرى وربطها على جرح الرجل إلا أنها لم تتورم وتغير لونها فرفعها كذلك ثم وضع أصبع الـرجل فى فمه وامتص موضع الجرح وبصق بـصاقا أصفر على الأرض ومسح يـد الرجل بمصل الـفاروق الأعظم المخفـف، وبذلك سكن ألـم الرجل ونجى من التسـمم ونفخت فيه روح جديـدة، ولعلهم كانوا قد تـركوا سهوا رأس وذيل أحد الثعابين التى لم تذبح على الطريقة الصحيـ ـة بين أحشاء وبيض الثعابين الأخرى، بعد ذلك بينما كان القصابون يملحون أحـشاء وبيض الثعابين بالملح، أصاب السم الذى فى الثعبان الذى لم يذبح بطريقة سليمة أصبع الرجل وعولج الرجل على نحو ما سلف ذكره وكتبت له النجاة.

وخلاصة القـول أننى لم أصادف أحدا فى شجـاعة وعنف وقسوة هؤلاء الـصيادين والقصابين حاشا أن يكون هؤلاء من البشر. ولو أنـى رأيت ما تستفاد منه العبرة ولكنى لم أكن فى وعيى فى أى دقيقة ولقد قدمت على مشاهدتى ذلك.

وسألت كبير الأطباء ثانية: ماذا أنتم صانعون بجلود وأحشاء وأكباد وبيض هذه الثعابين بعد تمليحها ووضعها فى أوعية بها ماء الملح!.

فقال كبير الأطباء: ماذا تقصد بسؤالك هذا؟ فكررت سؤالى.

فأجاب قائلا: إن سفراء الفرنجة هنا يشترونها منا ويبعثون بها إلى أطبائهم فى بلاد الفرنجة، وهم يستخدمونها فى علاج جميع الأمراض كل عضو على حده، ومفعول هذه الأدوية يسرى فى الحال.

وبعد أن طهروا الثعابين المملحة وضعوا كل اثنتى عشرة قطعة منها فى وعاء مبطن بالزجاج ثم وضعوا هذه الأوعية فوق مواقد المطبخ فى أحد أركان حرم المستشفى وأشعلوا تحتها حطب شجر السنط وأمسك كبير الأطباء فى إحدى يديه عصا وفى يده الأخرى ساعة ومعه الطهاة من معاونيه وكل منهم ممن تبحروا فى الطب من تلاميذه الكمل، ومهمة كبير الأطباء هى مجرد مراقبة الوقت. وغليت الثعابين داخل الأوعية ثلاث ساعات حتى ظهرت زيوت صفراء فوق هذه الأوعية فحمل كبير الأطباء ملعقة كبيرة فى يده وأخذ بعضا من هذا الزيت ثم ملأوا زجاجات للقطرة كانت لديهم بهذه الزيوت، وبعد أن أفرغوا كل ما فى هذه الأوعية داخل الزجاجات أوقدوا النار تحت أوعية الثعابين للمرة الثانية. وليكن فى معلومك أن الأوعية التى تطبخ فيها الأفاعى ليست من النحاس، إنها ـ كما سبق أن أشرنا ـ أوعية فخارية مبطنة من الداخل والخارج بالزجاج ثم حمل كبير الأطباء الزيت الناتج من الثعابين بملعقة كبيرة ومزج هذا الزيت بأجود أنواع زيت صوصة فى بلاد المغرب وهذا الزيت يشبه ماء الحياة وملأ زجاجة من خمس أوقيات من زيت الثعابين مع خمس أوقيات من الزيت الخالص لمدينة صوصة ووضع هذه الزجاجات على نار هادئة ثم زاد النار اشتعالا وبعد ثلاث ساعات رفعها فأصبح لهذا الزيت قوام السمن المصفى ورائحة ذكية وهى رائحة يتنسمها الحضور على لذة.

وبعد أن عيل صبرى سألت كبير الأطباء فقال: والله فى الهند تكثر أمراض الجذام والبهق والبرص وهذا الزيت مناسب جدا لجو الهند، وإذا دهنت أجسام المصابين بهذه الأمراض بهذا الزيت لم يبق فى أجسامهم أثر لهذه الأمراض وابيضت بشرتهم، إلا أن

هذا الزيت عديم النفع فى مصر ولو دهنوا أجسامهم به ألف مرة، أما المبتلون فى مصر بالجرب والخفقان إذا طعموا كل يوم بدرهم طيلة أربعين يوما تم لهم الشفاء بإذن الله.

وبعد أن تطهى الثعابين على النار فى الأوانى لمدة ثلاث ساعات أخرى حتى ينقص ماؤها بقدر شبر ترفع جميع الأوانى عن النار، ثم توضع الثعابين المطبوخة فى صينيات نحاسية ثم تبرد.

وعندما جاء أعيان مصر برسائل الشفاعة منذ شهر ومعهم الكاسات والأباريق والدلاء أخرجوا ما تبقى من الثعابين المطبوخة المحفوظة فى أوعية زجاجية من داخل الصواوين وكان يكتب اسم ومرض ووصف كل أحد على ورقة توضع فى إناء من نحاس، وملأت هذه الكاسات والأوانى بحساء الأفاعى وأضيف إليه بعض الأدوية حسب ما تقتضيه حالة المريض وسلمت الكاسات والأباريق لكل واحد وبذلك وزع حساء الأفاعى على مئات المناطق.

ثم ملأ الخدام الصحون بحساء الأفاعى وقطعوا الخبز ووضعوه فيها فطاش صوابى.

وبدأ كبير الأطباء والناظر أغا والكاتب وسائر الخدم فى احتساء فناجين حساء الأفاعى وأحضروا لى فنجانا فلم أقبله، فقال لى كبير الأطباء: إنه يا مولاى يقوى البصر ويقطع ريح الباسور. ونزولا على رغبتهم وإلحاحهم تجرأت على شرب فنجان معهم وأنا مغمض العينين وضغطت على أسنانى وقلت: بسم الله وبنية الشفاء ولكنى شممت منه رائحة المسك، فأتونى بفنجان آخر وقد وضعوا فيه بطرف السكين مقدارًا من زيت الأفعى مع مقدار من الزيت فشربته كذلك وأشهد الله أن رائحة المسك لم تفارق أنفى طيلة أسبوع.

فوائد مسلوق الأفاعى

عندما غادرنا مكة وقدمنا بدرا وحُنَيْنا بحمد الله، هاجمنا بعض البدو فى تلك الليلة ونشب القتال بيننا وبينهم، وفى تلك المناطق أصابتنى الحمى وظهر طفح على جلدى فاحتسيت فنجانين من حساء الأفاعى، وبعد أسبوع لم يبق فى جسمى أثر للمرض وابيضت بشرتى وأصبحت كالفضة الخالصة وامتلأت عافية ولمست فوائدا عدة لهذا الحساء.

حادثـــة

وأعظم فوائده كذلك أنه فى عام ١٠٥٦ حاصر: تكلى مصطفى باشا قلعة «مشاشبه» إحدى قلاع البندقية عـلى حدود البوسنة وأمطر القلعة بوابل من طـلقات المدافع أربعين يوما وليلـة، إلا أنه ما استطاع إلى فتحهـا سبيلا وعاد دون أن يحقق بغيـته ومضى إلى موضع يسمى «دانيال اوو» أى سهل دانيال، وعسكر فيه، وعندئذ حاصرنا مائتا ألف من نصارى الأوسقو والدوشقة والفرنجة والكـروات من جميع الجهات، وبعد قتال ضار دام سبع ساعات انهزمت القوات العثمانية وبدأ النـصارى يسخنون القتل فى المسلمين وكنت فى ذلك الوقت منخـرطا فى سلك الانكشارية ووكيلا للخرج، وشـاهدت بعينى هؤلاء النصارى وهـم يعملون السيف فـى سبعة من عبيـدى وثلاثمائة من رفاقى فـتركت كل أموالى وأرزاقى وكـان لى جواد وهبنى إيـاه الصدر الأعظم قره مـصطفى باشا فـتركته جانبا، وفى هذا السهل الوسيع جعل النصارى الضالون يقتفون أثرى إلا أنهم لم يعثروا على فقـد أخفانى الله عن أبصـارهم، وفى آخر الأمر عنـدما مال ميزان النـهار ضاقت الدنيا فـى عينى فتركت جوادى ودخـلت غابة ومعى سيـفى وكنانتى وعايشـت الطيور والوحوش فيها سبعة أيام وست ليال كنت أتقوت فيها بجذور بعض النباتات والثمار.

ولأنى كنت أمضى سيرا على الأقدام كان سيفى وجعبتى ومنطقتى وما فيها من نقود قد أنهكتنى بثقـلها وما عدت أطيق لها حملا، فأخرجت السهام مـن كنانتى وأمسكت بالقـوس ووضعت كنانتـى ومسدسين وبنـدقيتى وسيفـى وما معى من نقـود فى قراب ورفعت أحجارا تحت صخرة ودفنت فيها السيف والبندقية ومنطقتى واستودعت كل هذه الأشياء الله أمانة فطابت نفسى بذلك، ومضـيت بعد ذلك إلى غدير وتوضأت وصليت ركعتين واستمددت العون من أرواح الأنبياء والأولياء قاطبة، وبينما كنت مندهشا حائرا سمعت صوتا باللغـة البوسنويه هو صوت شيخ مجود وسمعت صوتـا من الجهة المقابلة يقول: أين أنت؟ فـرد الآخر باللغة البوسنويـه: تعال يا ولدى العزيز ولما اسـتمعت إلى هذا الكـلام ارتدت إلى روحى وتنفـست الصعداء ولـكن الشيطان وسـوس فى صدرى وتساءلت هل كل من يسكنون هذه الجبال مـن الكروات والأصقو وهم يتبعون النصارى

وقد أعملوا سيفهم فى العثمانيين فهل هذا الصوت آت من قبلهم. وبينما كنت أفكر فى ذلك قدم صاحب الصوت الذى سمعته فإذا به رجل مع ابنه قدما إلى الجبل يحطبان إلى أن حل وقت الظهر ورُفع الآذان فعرفت أنهما من أمة محمد فتقدمت نحوهما وتعرفت بهما بعد أن ألقيت السلام. فقال لى هذا الرجل باللغة البوسنويه: أهلا بك، هل أنت من سكان هذه الجبال؟

فقلت: كلا إن لى بعض الرفاق خرجت معهم متصيدا فى تلك الجبال التى نعرفها. وسألته: هل أنت من انكشارية قلعة هلونه؟

فقال: أو ليس عندك خبر عن هؤلاء الجند الذين لحقت بهم الهزيمة ؟

قلت: لقد انهزم هؤلاء الجند منذ أسبوع ومضوا إلى قلعة هلونه وقلعة كنين.

فقال: لما استولى النصارى على قلعة «كلس»؟

أما أنا فمهمتى كانت المحافظة على نفسى وأنا أحتضر.

وجملة القول أن الصداقة انعقدت بيننا، وبينما كنا نمضى إلى قلعة «غلاموج» التقينا بحاكمها فى الطريق وبعد حديث طويل أنزل أحد خدامه عن حصانه وأركبنى فحمدت الله حمدا كثيرا وانخرطت فى البكاء. وبعد ساعتين دخلت قلعة «غلاموج» فى موكب وحللت ضيفا فى تلك الليلة على منزل حاكم القلعة، ويا لها من حكمة أن يكون حصن الإسلام على بعد ساعة منى إلا أن الخوف تملكنى فبقيت سبعة أيام وليال ولا يؤنسنى إلا الثعالب وبنات آوى والأرانب والظباء. وفى اليوم التالى طلبت من حاكم القلعة عشرة فرسان فقد تركت تحت صخور الجبل خلانا أوفياء وذهبت لأبحث عنهم مع عشرة من الرفاق وعندما وصلنا الموضع الذى دفنت فيه سيفى وكنانتى وقوسى ومنطقتى تركت جوادى لرفاقى وتقدمت وأزحت الأحجار وأخذت أسلحتى، وكانت الثعالب وبنات آوى أكلت جلد كنانتى وعلقتها فى خصرى على هذه الحالة وأخذت منطقتى كذلك وحملت بندقيتى وحمدت الله حمدا كثيرا، ومضيت نحو رفاقى وامتطيت صهوة جوادى ووصلنا قلعة «علاموج» بعد ساعة، ونزلت ضيفا فيها سبعة أيام.

واتفق لى أنى نمت ذات ليلة وحدث لى ما يشبه الاحتلام واستيقظت على ألم فى خصرى، وبينما كنت فى ثوب النوم أنزلت وتدفق المنى وكأنه دم أحمر مدة ساعة فمرضت سبعة أيام ثم تم لى الشفاء وأكرمنى محمد أغا حاكم القلعة بإهدائى جوادا وثيابا، كما أكرمنى سائر أعيان الدولة وطيبوا خاطرى ووهبونى خادما ووصلت فى كثير من الرجال إلى «تكلى باشا» فى سهل هلونه إلا أننى لم أجد أحدا من رفاقى فقد استشهدوا جميعا فى قتال النصارى واستولى النصارى على قلعة «كلس» وقضوا على من بها من جند، بيد أن تكلى باشا أعلن النفير العام وبدأ فى الدفاع عن الولاية مع أهلها فقدمت والتقيت به فأهدانى جوادا وثيابا وصلتى به كانت جد قديمة، فحما أحمد باشا كان قد تزوج والدة الأميرة «رقية».

وبما أن الشىء بالشىء يذكر فإن ما ذكرته من احتلامى فى تلك الليلة التى قضيتها فى قلعة «غلاموج» لم يكن احتلاما وإنما كان نتيجة انقطاع ذريتى فدب دبيب اليأس فى نفسى إلا أنه بعد مرور سبعة وعشرين عاما هبطت مصر وشربت فنجانين من حساء الأفاعى فى بيمارستان قلاوون وفى تلك الليلة احتلمت مرتين فتوجهت فى الصباح إلى هذا المستشفى وقصصت ما وقع لى من أوله إلى آخره على كبير الأطباء فأعطانى عشر أوقيات من مسلوق الثعابين وحقة من زيت الثعابين وتعاطيت مسلوق الثعابين خمسة أو ستة أيام فتمت عافيتى وصح بدنى حتى إنهم كانوا يكسرون البندق على شحم ولحم جسمى وهكذا أصبح جسمى وكأنه حجر ووجدت كذلك كثيرا من الفوائد .

فوائد تعاطى مستحضرات الترياق الفاروقى

جملة القول أن كبير الأطباء وزع مسلوق الثعابين هذا على الناس جميعا ووضعت يخنى الثعابين التى طبخوها فى صينيات وجلس كبير الأطباء وتلاميذه ومعاونوه على رأس الصينيات وقد غسلوا جميعا أيديهم وشمروا عن سواعدهم وأخذوا يخنى الثعابين وتناولوه بأيديهم وأمسكوا بأيديهم كل ثعبان واستخرجوا نخاعه من ظهره وكأنه حبل شديد الفتل وهذا ما يسمونه (قرس الترياق الفاروقى) والترياق الأعظم هو هذا النخاع الذى يشبه الحبل. ويستخرج من كل ثعبان مقدار مثقال.

وكل هذا العناء والمشقة والخوف من أجل الحصول على مثقال من هذا الدواء، وكل أعضاء الثعبان المطبوخة ليست فاروقا وهم يلقونها أو يمنحونها للفقراء ليأكلونها والبعض يلقون بها فى الأراضى الخربة.

لطيفة مرغوبة من أجل طائفة الجماع

أتفق أن وزع يخنى الثعابين على أحد العاجزين جنسيا ولما تناوله هذا الرجل جامع زوجته خمس أو عشر مرات، ولما لم يكتف بذلك تأذت منه زوجته وشكته إلى المحكمة فى الصباح قائلة: إنى لا أحتمل هذا الألم والعياذ بالله، فقال آكل لحم الثعابين إنه جامعها عشر مرات، فأصلح قاضى العسكر ذات بينهما على عشرين مرة وكان معظم من استمعوا إلى هذه الشكوى يتعاطون حساء الأفاعى فدعوا الله قائلين: اللهم يسر.

وجملة القول أنهم يسحقون لحم ظهر الثعابين فى هواوين من الخشب حتى تصبح على هيئة معجون أبيض ويَزِنُونَ هذا المعجون، وعندئذ يسمونه قرص الأفعى، وهو معجون أبيض يصفونه بمناخل ضيقة ويخلط قرص الأفعى والعسل الصافى بأوزان معلومة.

وفى كل عام تطهى ثلاثة قدور كبيرة من الترياق الفاروقى فيهدون وعائين إلى السلطان ووعاء إلى الباشا وآخر للصدر الأعظم وشيخ الإسلام فى اسطنبول وكبير الأطباء وقاضى عسكر مصر، وما يتبقى يحفظه ناظر قلاوون على أنه وقف خيرى ويصرف منه إلى المرضى طريحى الفراش فى مستشفى قلاوون، وبذلك يصل هذا الترياق الفاروقى إلى بلاد الترك والعرب والعجم والفرنجة وجميع الأقاليم السبعة.

وبهذه الكيفية كان يطبخ هذا الترياق مرة واحدة فى مصر فى العام ولكن عندما زرتها أمر كبير الأطباء فى مستشفى قلاوون وهو أستاذ جهبذ بطبخه ثلاث مرات فى العام.

ذكر ميزات حية الصفى

كانت أفاعى الصفى التى سلف الحديث عنها تربو على الألف وللمدرسة التى يصنع فيها الترياق الفاروقى باب يفضى إلى حجرة صغيرة من زجاج وقد مدوا حبالا غليظة من ركن إلى ركن فى هذه الحجرة ثم قام كبير الأطباء بربط ذيول الأفاعى البيض بخيوط من الحرير الأحمر وعلقها فى تلك الحبال فجعلت هذه الأفاعى تتلوى بعنف

وتلدغ بعضها البعض وانتفخت هذه الأفاعى إلى أن أصبحت الواحدة منها فى غلظ الذراع وغُلقت جميع أبواب ونوافذ الحجرة وخرج الأطباء منها، وبعد أربعين يوما أعادوا فتح الحجرة فإذا بالحيات وقد أصبحت كلها مثل حبال شديدة القتل وأصبح ما فى جوفها من عظام مثل البذور السود والرائحة المنبعثة منها أذهبت عقول الحضور.

ميزة أخرى للحية العجيبة

وهذه الأفاعى ذات الرءوس المستديرة كالجوز قطعها القصابون شطرين من نصفها وملحوا جلدها المختلف الألوان وعلقوها من رءوسها فى حبل ودفنوا أطراف ذيولها فى الأرض وتركوها على تلك الحالة أربعين يوما فاحمر لونها وتربست أجسامها فأخذوها مرة أخرى وحفظوها فى حقاق من رصاص بعيدا عن النمل الذى يتهافت عليها. فلحم الثعابين ولحم البشر غاية فى لذة طعمه.

لطيفة غريبة

رأيت فى صحراء «هيهات» قوم القالمون أكلة لحوم البشر، إنهم يأكلون لحم موتاهم وقد خنقوا بعض أسراهم من النوغاى وأكلوا لحومهم إلا أنهم لم يذبحونهم حتى لا تتسرب دماؤهم فهم يخنقونهم ويطبخونهم ويأكلونهم. ويقولون إن ألذ اللحم لحم البشر والثعابين والخنازير كما يقولون إن إلية الخنزير وإلية البشر ألذ ما يكون طعما.

وواقع الأمر أن بين الترك من هم على مذهب القالمق ويعرفون ذلك حق المعرفة، أما أنا فقد شاهدت ذات مرة أحدا يقبل حسناء فدبت فيه الحياة وشعر بمزيد من السرور فأدركت من ذلك أن لحم البشر لذيذ.

خلاصة القول أننى عندما قدمت مصر لم أجد شيئا يشبه الترياق الفاروقى فى الدنيا بأسرها.

وإذا اتفق أن دخل ثعبان برج الحمام فى بيت أحد وهاجم صاحب الدار فإنه ينطلق إلى أحد صيادى الثعابين، وبالطبع يدفع إليه مبلغا من المال فيدخل البيت ويصيح صيحة وينفخ فى الصفارة المعلقة فى خصره وله صفير خاص فى فمه، وعندما يتردد هذا الصفير تبدأ الثعابين فى الظهور من جميع الأركان وترفع رءوسها وترتمى على الصياد

وتهاجمه فيجمعها كلها فى مخلاته، فتأمن هذه الدار شرها، إلا أن الترياق الفاروقى لا يستخرج من تلك الثعابين بل يستخرج من نوع معين من الثعابين يوجد فى البرية.

وبالحديث عن الثعابين يطول كذبنا ولكنى أشهد الله أن هذا ما وقع ففى عام ١٠٨٥ اتفق أن كان أحمد أفندى إماما لجان بولاد زاده حسين باشا وقد اجتمعت الثعابين فى حجرته فأرجعته عنها. وبينما كان جواد الإمام يعتلف دخل ثعبان منخره فنفق وانتفخت جثته وأصبحت كجثة الفيل وتعذر نقله أو تنحيته جانبا فحفروا حفرة فى هذا الموضع ودفنوه فيها، إلا أن الإمام لم يستطع العودة إلى داره وكنت قد التقيت ذات يوم بأحد صيادى الثعابين فمضيت به إلى حجرة الإمام وعندما وصلها أطلق صيحة عالية وشرع ينفخ فى صفارته وعندئذ خرجت خمسة أو عشرة ثعابين طويلة كل ثعبان فى غلظ الذراع وطول الباع ورفعت رءوسها وتجمعت حول الصياد فتعلق الناس أما أنا فهربت إلى عقر أفندى الديوان وأطللت من النافذة، وربما هاجمت الثعابين الصياد ساعة إلا أنه فى النهاية وضع أحد عشر ثعبانا منها فى مخلاة وقال الحمد لله ومضى إلى سبيله وأمن القصر من الثعابين وعاد الإمام إلى حجرته.

حكاية أغرب الغرائب العجيبة

وبعد أيام عدة وصلنا ميدان الرومللى ولعل الصياد باع أحد عشر ثعبانا للحواة بمبلغ عشرة قروش للثعبان الواحد والله أعلم، وكل منها ضخم مخيف ولقد درب الحاوى هذه الثعابين عدة أيام فجعلها ترقص كالقردة فى ميدان الرومللى، ويا عجبا لما لهؤلاء الصيادين من سحر، وربما كانت لهم كرامات كالأولياء والله أعلم. والعجيب فى ذلك أنها مسخرات يعجز عنها الوصف وبينما كان الحواة يرقصون ثعابين الإمام اندفع أحد هذه الثعابين ولدغ طفلا فى قدمه، واتفق أن كان فى هذا المكان وفى تلك اللحظة درويش سعدى فامتص السم من موضع لدغة الثعبان فى قدم الطفل وبصق السم وفى الحال تخلص قدم الطفل من السم، بيد أن هذا الدرويش لم يقر قراره فقال: يا حى يا قيوم وسلام على نوح فى العالمين وشوى الثعبان الذى لدغ الطفل لأكله وعلى

الجانب الآخر صاح الحاوى قائلا: وا ويلاه إن هذا ثعبان إمام الباشا وقد ابتعته بأحد عشر قرشا.

وفى نهاية الأمر جاء قوامى نقيب الحواة ومضى بالدرويش السعدى إلى الباشا وفى حضرة الباشا كان الدرويش لم يزل يأكل ما تبقى من الثعبان وقد أزيد فمه أما الحاوى فجعل يصيح كالتنين قائلا: ضاع ثعبانى واستشاط غضبا، وشهد حضور المجلس أن الدرويش أنقذ الطفل من فتكة الثعبان فسر الباشا لذلك فقدم للدرويش ثعبانين ليأكلهما أمامه وقدم إليه كذلك خمسين دينارًا من ذهب، ومنح الحاوى عشرة دنانير والطفل خمسة دنانير، وكان هذا مشهدا عجيبا إلى حد جد بعيد.

ونعود إلى استكمال حديثنا عن أوصاف الترياق الفاروقى ومستشفى قلاوون:

لا وجود فى مصر لمبنى له ما لأبنية مستشفى قلاوون من عظمة ومتانة أوقافه وله صيدلية منقطعة النظير يصرف الدواء منها للمرضى والمجانين وهى لا نظير لها فى الدنيا. إنها مؤسسة خيرية بكل ما تحمله الكلمة من معان.

مستحضرات الترياق الفاروقى المستخرج من قرص الأفعى

إن أطباء المشفى ولو أنهم صنعوا أدوية مختلفة إلا أن أهمها وأعظمها:

* **الترياق الأكبر:** إنه دواء لمائة وستة وسبعين داء وهو يحضر من ستة وسبعين دواء، وهو يطرد الريح من المعدة والأمعاء، كما يشفى أربعين مرضا كذلك.

* **ترياق الطين المختوم:** إذا تناول أحد السم أو لدغته أفعى أو بعض الحشرات وتناول منه مثقالا شفى ونجى من الهلاك بإذن الله.

* **ترياق الطين:** إنه ـ على حد قول الجرجانى ـ نافع من لدغ الثعابين.

* **ترياق اليانوش:** إذا أذيب نصف مثقال منه فى الماء أنقذ من لدغة الأفعى والحية.

* **ترياق الكبير:** أما هذا الترياق فهو نافع لجميع السموم.

* **ترياق الأمير باليوس:** مستحضر عجيب يضفى الجمال على الإنسان ويمنحه صفاء البشرة.

وجميع هذه العقاقير والمستحضرات فى مستشفى قلاوون.

ترياق الحكيم هاليوشى الذى يصنع فى عصرنا الحالى

إنه ترياق يعدل الدنيا بأسرها، ومن ملكه ملك الدنيا وما فيها، إنه شفاء لكل داء. فمن تناول مثقالا منه شفى من الجذام والبرص وما شابههما من أمراض، وهو يخرج العرق من البدن فيخرج معه المرض، أما تركيبه فعلى النحو التالى:

قرص أفعى، والقرنفل، والزنجبيل، وجوز البوا، والجنطيانا، والقاقوله، والميع اليابس، والقصب المر، وأصل الكبره، والحناء، وعود القهر، وحب البيلسان، والسليحة، والقرفة والسنبل الهندى، والزراوند، وبذر الكرفس، وبذور الجزر، والفلفل الأسود، وحب القار، وثلاثة دراهم من القرد مانا، وتعجن فى مقدار كاف من العسل الخالص، وتحفظ ثلاثة أيام فى وعاء فخارى مبطن بالزجاج، ثم يسحق هذا الخليط مع ثلاثة دراهم من كل من الأفيون، واللادن والزعفران، ويضاف إلى ذلك الميعة السائلة، ومثقال من ماب الحمار يسحق كذلك مع هذا الخليط،ويضاف ذلك إلى المعجون الموجود فى الأوعية الفخارية المبطنة بالزجاج، ويوضع هذا مثل سائر المعاجين فى الشعير حتى يؤكل منه مثقال، وهو عظيم النفع ومن ملكه ملك الدنيا بأسرها.

وأول من اخترع الترياق الفاروقى، «نوش منافيوش» أحد ملوك القبط.

* * *